جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم علم الاجتماع
مقرر: المنهج وطرائق البحث/ف2/ س3
عنوان المحاضرة: طريقة دراسة الحالة

طريقة دراسة الحالة

استخدمت دراسة الحالة منذ زمن بعيد. وما دراسة الشعر والقصص والأساطير إلا نوعاً من دراسة الحالة، فدراسة مؤلفات أحد الأدباء أو شعر أحد الشعراء لمعرفة الخصائص والسمات التي يتمتع بها هذا الأديب أو هذا الشاعر تعتبر دراسة حالة. وفي اللغة الدارجة يستخدم لفظ (عرض حال) بمعنى أن يعرض الإنسان حالته لفهم الدوافع والأسباب الأساسية للمشكلة التي يعاني منها، وقد لجأ عامة الناس إلى أسلوب تقديم الشكاوى إلى الجهات المسؤولة عن طريق العرائض ليصوروا من خلالها الأوضاع التي يعانون منها. إلا أن اعتماد طريقة دراسة الحالة كأسلوب علمي لدراسة الأفراد، والجموع البشرية، والهيئات الاجتماعية، لم يؤخذ به إلا منذ عهد قريب ..

أولاً – التطور التاريخي لطريقة دراسة الحالة:

يعتبر" فردريك لوبلي" أول من استعمل طريقة دراسة الحالة في البحث الاجتماعي في بحثه " العمال الأوروبيون"، وقد استخدمت كطريقة مساعدة للطريقة الإحصائية.

أما" وليم هيلي" فقد اعتبر دراسة الحالة العمود الفقري لدراساته عن إجرام الكبار وجناح الأحداث في أمريكا، وذلك بعد دراسته لـ (1000) حالة عن موضوع الإجرام والجناح، حيث أن الإحصاء وحده لا يفصح تماماً عن مضمون الحالة والدوافع الأساسية للإجرام والجناح.

وقد كان " هربرت سبنسر" أول عالم استعان من دراسة حالات كثيرة جاءته من مختلف المراسلين في أنحاء العالم يصفون فيها القبائل المتأخرة، وما يؤخذ عليه هو أنه استخدم في كتابه " علم الاجتماع الوصفي" الحالات التي تؤكد آراءه الاجتماعية فقط دون ذكر المخالفة.

ويعتبر الباحثان" توماس" و" زنانيتشي" أول من استعمل دراسة الحالة، بشكل منفرد، في ميدان البحث السوسيولوجي، فقد أوردا في كتابهما" الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا" مجموعة واسعة من **الوثائق، الرسائل الشخصية، مقالات الجرائد، لوائح الانتساب إلى جمعيات المهاجرين، المحفوظات الرعوية، محاضر اجتماعات الجمعيات الأمريكية – البولونية**، وعرضا في كتابهما هذا السيرة الذاتية الطويلة والمشوقة لمهاجر يدعى" فلاديك"، وكان غرضهما من الدراسة معرفة مدى تأقلم الفرد في المجتمع الجديد الذي انتقل إليه أو عدم استطاعته هضم ثقافة هذا المجتمع. والتناسب هنا طردي ما بين قوة تماسك الجماعة والزمن المستغرق للتأقلم معها، فإذا كانت الجماعة متماسكة فالفرد يحتاج في تأقلمه لمدة أطول، بعكس الحال في الجماعات المتفرقة وغير المتماسكة فإن تأقلم الفرد فيها يكون أسرع. وقد شكل التغير الاجتماعي مركز الاهتمام بالنسبة لهذه الدراسة.

ثانياً – التعريف بطريقة دراسة الحالة وموضوعاتها:

لعل واحداً منا يتذكر أنه شاهد يوماً ما أحد الأفلام السينمائية وهو يبدأ بتصوير البطل يواجه مأزقاً أو بصدد اتخاذ قرار حاسم في حياته، ويستمر الفيلم بعد ذلك عبارة عن عرض استرجاعي ليوضح لنا خطوة خطوة كيف انتهى الأمر ببطل الفيلم إلى هذا الموقف أو إلى هذه اللحظة الحاسمة في حياته؟ وطريقة دراسة الحالة أو تاريخ الحالة كما تسمى كثيراً – في الدراسات الاجتماعية – تشبه طريقة **(العرض الاسترجاعي)** في الأعمال الفنية وخاصة السينمائية. وتعد طريقة الحالة من أكثر طرق البحث الاجتماعي انتشاراً وأكثرها استخداماً للوصول إلى تفهم لأسباب تصرف فرد ما على نحو معين. والتعرف على اختلافات تصرفه في المستقبل.

والفرض الأساسي الذي تستند إليه طريقة دراسة الحالة هو أن كثيراً من اتجاهات الفرد الاجتماعية وأنماط سلوكه قد تطورت عن محاولته التعامل مع الأحداث والخبرات الهامة في حياته، والتي كانت بمثابة نقط تحول في تاريخه، ويفترض أن هذه الأحداث قد أدت إلى تغيير حياته، وأن هذه الحياة قد اتخذت مساراً جديداً لها.

من تلك الأحداث الهامة، على سبيل المثال: اتخاذ القرار من قبل الشاب في إكمال دراسته العليا، أو الاكتفاء بمرحلة التعليم العام، أو نوع من التعليم المهني، وترجع أهمية هذا القرار إلى أن سلوك هذا الشاب سيتعدل بالضرورة ليلائم الأوضاع الجديدة.

تعرف" بولين يونغ" طريقة دراسة الحالة بأنها الطريقة التي تُجمع فيها حقائق عن مواقف اجتماعية كلية أو مركبات من عوامل يتصل بعضها ببعض، والتي نصف بها العمليات الاجتماعية، أو تتابع الحوادث التي تتشكل فيها الخبرة البشرية، والتي ندرس فيها السلوك الفردي في إطاره الاجتماعي، والتي نحلل بها، أيضاً، ونقارن بين حالات نؤدي بنا إلى تعميمات أو تكوين مبادئ.

يتضح من هذا التعريف أن طريقة دراسة الحالة تتعدى نطاق وصف وجمع البيانات إلى مرحلة التحليل والمقارنة، وصولاً إلى تعميمات ومبادئ عامة تحكم السلوك الاجتماعي. وتشمل هذه الطريقة في تعريفها دراسة العمليات الاجتماعية التي تحدث فيها الخبرة البشرية ضمن الإطار الاجتماعي لجزء من حياة الوحدة أو لها كلها.

ويعرف علماء الاجتماع في أمركا دراسة الحالة: بأنها " المنهج" الذي يتجه صوب جمع البيانات العملية التي ترتبط وتتعلق بأية وحدة مطلوب دراستها سواء أكانت فرداً، أم نظاماً اجتماعياً، أم مجتمعاً محلياً، ... الخ. غير أن المتخصصين بمناهج البحث في الوقت الراهن يعتبرون دراسة الحالة طريقة وليست منهجاً، لأن منهج البحث واحد في كل العلوم، في حين تتعدد الطرائق. وتأسيساً على ذلك فإن دراسة الحالة هي:

طريقة منهجية لتحديد اهتمام الباحث بحالة واحدة، يتمكن من دراستها بعمق ودقة واهتمام، مشخصاً جميع جوانبها سواء أكانت هذه الحالة فرداً أم أسرة، أم مؤسسة، أم هيئة اجتماعية، (كجمعية تعاونية)، أم جماعة، أم مجتمعاً صغيراً (كالقرية)، وهذا ما يتبع عادة في الدراسات الأنثروبولوجية مثل دراسة (محمد عاطف غيث) عن القرية المتغيرة في مصر ودراسة الدكتور " حامد عمار " عن التنشئة الاجتماعية لقرية مصرية...

ثالثاً – استخدامات طريقة دراسة الحالة وشروط الاستبصار:

ـ تستخدم طريقة دراسة الحالة عند التوجه نحو جمع أكبر قدر ممكن من البيانات عن الوحدة المدروسة وتاريخها القديم.

ـ تضيف طريقة دراسة الحالة بعداً جديداً للرقم الإحصائي.

ـ يستفاد من طريقة دراسة الحالة في مجالات متعددة بالتعاون والتضافر مع طرائق البحث الأخرى كعامل مساعد للطريقة الأساسية التي يستخدمها الباحث في التحليل العميق للبيانات الاجتماعية.

وهناك **شرطان يجب توافرهما** لتصبح هذه الطريقة مثمرة في استثارة الاستبصار، وهما:

ـ اتجاه الباحث الذي يجب أن يتميز بحساسية فائقة للبحث.

ـ مدى عمق الدراسة للفرد أو للجماعة، إذ ينبغي أن يحاول الباحث الحصول عل أكبر قدر من البيانات التي تسمح له بالتمييز بين السمات النوعية للحالة المبحوثة وبين السمات العامة المشتركة بين عدد كبير من الحالات. إضافة لذلك يعتمد نجاح هذه الطريقة على القوى المتكاملة للباحث.

الحالات التي تفي دراستها في إلقاء الضوء عل الظاهرة المدروسة، أو تلك التي يمكن أن تثير الاستبصارات إليها، وذلك على النحو التالي:

1 – يستطيع الباحث أن يحلل استجابات الغرباء أو القادمون الجدد إلى مجتمع محلي معين.

2 – دراسة الجماعات الهامشية، ويقصد بها تلك التي تختلف جزئياً عن ثقافتها القديمة.

3 – دراسة الأفراد أو الجماعات الذين يشهدون حالة انتقال من مرحلة معينة للتطور إلى مرحلة أخرى.

4 – يمكن أن تؤدي دراسة الحالات الشاذة في جماعة من الجماعات إلى إلقاء الضوء على الحالات السوية، والتعرف بطريقة غير مباشرة على العوامل التي تؤدي إلى التماسك الاجتماعي.

5 – إن دراسة خصائص الأفراد تكشف عن خصائص المواقف الاجتماعية المختلفة.

6 – يساعد إنشاء الأفراد الذين يشغلون أوضاعاً متباينة في البناء الاجتماعي على تكوين فكرة شاملة عن الموقف الذي يدرسه الباحث، فنستفيد من خبراته الخاصة، وفحصه الدقيق للاستجابات مما يشكل مصدراً ثرياً للاستبصارات.

7 – يمكن استخدام دراسة الحالة في مجال ظواهر فريدة وأنواع نادرة مثل دراسة مهربي المخدرات، ودراسة مرتكبي الجرائم.

8 – تستخدم دراسة الحالة لاستنباط الفرضيات واختبارها في مجال دراسة الظواهر السياسية، كأن ندرس خلافاً سياسياً بين دولتين، أو مراقبة وضع سياسي في مجتمع معين...الخ.

رابعاً – مجالات طريقة دراسة الحالة:

تتعدد مجالات دراسة الحالة، تبعاً لتنوع الموضوعات والأهداف المرجوة من البحث، وتستخدم هذه الطريقة في دراسة الأفراد، والأسر، والمؤسسات، والجماعات المحلية، والنظم الاجتماعية، والظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد.

1 – مجال الأفراد:

يتحدد مجال دراسة الحالة هنا بالفرد، وتركز هذه الدراسات على نفسية المبحوث إضافة إلى سلوكه الاجتماعي وخلفيته التاريخية. وفي دراسة حالات الانحراف الخلقي أو الاضطراب السلوكي أو دراسة بعض أفراد المؤسسات الإصلاحية كالسجون وإصلاحيات الأحداث ودور الرعاية ومستشفيات الأمراض العقلية، لا تقتصر هذه الطريقة فقط على ملاحظة سلوك ونشاط المبحوث داخل المؤسسة الإصلاحية ومؤثرات نظام المؤسسة على السلوك المنحرف وكيفية إصلاحه وإدماجه في الحياة الاجتماعية السوية، بل تهتم بمسيرة حياته الشخصية وتأريخها خارج المؤسسة وجميع المحيطين به وطريقة تنشئته اجتماعياً ونفسياً وخلقياً. فالمجرم الذي يقوم بعمليات إجرامية رهيبة وغير إنسانية يصعب دراسته عن طريق المقابلة أو الاستبيان بل تسهل دراسته عن طريق الملاحظة بالمعايشة مع الاعتماد على الوثائق والسجلات الرسمية الصادرة في دوائر الشرطة أو السجن أو المستشفى أو الإصلاحية.

وفي هذه الحالة يركز الباحث على الجانب الاجتماعي والنفسي وأسباب انحراف أو احتراف المبحوث لهذا السلوك الإجرامي، لذلك مثل هذه الدراسات لا تشجع الباحث على أن يعمم نتائج دراسته على جميع المجرمين.

مثال آخر عندما يدرس علم النفس الاجتماعي التنشئة الاجتماعية لبعض الأفراد المتفوقين، أو دراسة الصفات الفريدة التي يتمتع بها القائد الفذ المؤثر على أتباعه بشكل قوي. إن مثل هذه المواضيع تتطلب متابعة المبحوث منذ ميلاده إلى وقت دراسة حالته. ولهذا السبب تسمى هذه الطريقة أحياناً بـ "تاريخ الحالة".

أمثلة أخرى: مثال "كلفورت شو" في كتابه (سائق المدحلة).

مثال دراسة الحالة لبعض المساجين الذين ارتكبوا جريمة الثأر لمعرفة تباينها بين مجتمع القبيلة والقرية والمدينة.

ب – مجال الأسرة:

تؤثر عملية التفاعل داخل الأسرة على كل عضو فيها. فالعادات والتقاليد التي يكونها الفرد، ونظرته إلى الحياة، وسلوكه واتجاهاته نحو العمل والجنس الآخر، ونحو نفسه ترجع في المحل الأول إلى العلاقات الدينامية التي يقيمها داخل هذه الجماعة الأولية. ذلك أن الأسرة هي الوعاء العاطفي المستمر الذي تحدث فيه أهم الأحداث التي تؤثر على حياة الفرد.

وتتمثل استمرارية الأسرة في دائرة لا تنتهي من وقائع الزواج، والميلاد، والموت، والطلاق، ويتأثر الأشخاص من كل الأعمار من الصغار إلى الكبار بالأسر التي يعيشون فيها. ونستطيع القول بأن لكل عائلة ثقافتها وبناءها الخاص، وأن القليل فقط من أساليب الحياة متأثرة بالفطرة. وبناءً على ذلك فإن عضوية الأسرة تعتبر جزءاً أساسياً من أفكارهم الشعورية الواعية.

ـ إن مجال البحث في الأسرة كوحدة للتحليل يتباين كل التباين عن مجال الأفراد، إذ أن **مشكلات الأسرة وخصائصها وسماتها** لا يمكن أن تعتبر المجموع العددي لسمات وخصائص الأفراد ضمنها، وقد أوضحت كل من" روث كافان" و" كاترين رانك" في بحثهما (الأسرة والأزمة الاقتصادية) المسائل الخاصة بطريقة دراسة الحالة في هذا المجال.

ـ في النصف الثاني من القرن العشرين ونظراً لتنوع المشكلات التي أضحت تعاني منها الأسرة في انتقالها من المرحلة التقليدية إلى المرحلة المعاصرة وما طرأ عليها من تغيرات في الوظائف والتباين في أنماط العلاقات الاجتماعية.

وعلى الباحث الاجتماعي هنا، أن **يحدد** منذً بداية بحثه **المقولات النظرية للمسألة الاجتماعية** المطروحة أولاً، **والمدلولات الاجتماعية الواقعية** لتلك المقولات ثانياً. وواضح أن العلاقة بين العاملين السابقين علاقة مستمرة. فالعلم يساهم في فهم الواقع الاجتماعي الذي يرفده على الدوام، أيضاً، بمعطيات جديدة. ففي بحث الظروف الاجتماعية المحيطة بالأطفال والعوامل المشجعة على تواجدهم خارج المنزل وضع الباحث منذ البداية أطراً عامة تحدد جوهر الحالة الاجتماعية المطروحة وخصائصها، ليتمكن من الإحاطة بكل جوانب الحالات المبحوثة بدقة وعمق.

ج – مجال الجماعة:

الجماعة هي عبارة عن مجموعة من الأفراد تربط بينهم علاقات اجتماعية متبادلة، تجمعهم أهداف مشتركة ومصالح عامة. **ويحدد هذا المصطلح وفقاً لعدة معايير منها:** 1 ــ ما يرتبط

بالبناء الاجتماعي المتكامل. 2 ـ ومنها ما يدخل في الحجم. 3 ـ وقوة الروابط الاجتماعية بين أفراد الجماعة. 4 ـ الوظائف والأدوار.

ويتعدى مجال استخدام دراسة الحالة هنا مشكلات الفرد، ودوافعه واهتماماته وكذلك نطاق الأسرة، إلى مشكلات الجماعة، كوحدة اجتماعية تحقق أهدافاً عامة ورغبات المجموع. كدراسة **مشكلات الجماعات المهاجرة لأسباب اقتصادية أو اجتماعية**، فهنا تتم دراسة أسباب وعوامل الهجرة لهذه الجماعة بما يضمن استقرارها وتحقيق أهدافها. **مثال على ذلك** " الفلاح البولوني " حيث صور المؤلفان المشكلات التي تعاني منها جماعات الفلاحين (استغلال اضطهاد، بطالة).

د مجال المؤسسات:

تلعب المؤسسات دوراً رئيساً في خلق أقنية جديدة للتفاعل الاجتماعي ضمن المجتمع، حيث تقدم الخدمات للأفراد من خلال خطط وبرامج التنمية. **مثال على ذلك** دراسة مؤسسة المكفوفين في مدينة دمشق، حيث اعتمدت هذه الدراسة على الاستبيان الأصلي بالإضافة إلى طريقة دراسة الحالة، وقد استغرقت الدراسة مدة ثلاث سنوات.

وبينت الدراسة تاريخ وأسباب إنشاء المؤسسة، ونموها وتطورها ومجمل الخدمات التي تقدمها من رعاية صحية، واجتماعية، وتعليمية، وترفيهية...الخ. وتمت معرفة هذه الجوانب من خلال المصادر التالية:

1 – زيارات استطلاعية متعددة. 2 – السجلات والوثائق الموجودة في المؤسسة. 3 – مقابلات مع المسؤولين والعاملين والأفراد الموجودين في المؤسسة. 4 – استمارة تضمنت مجموعة من الأسئلة التي شملت جميع الجوانب المذكورة. بالإضافة إلى المصادر المختلفة التي بحثت في هذه المسائل.

هـ – مجال النظام الاجتماعي:

يتركب النظام الاجتماعي من مجموعة متشابكة من السلوك الجمعي والعرف والقانون، تحيط بوظيفة أو أكثر من الوظائف الحيوية الهامة في نظر الجماعة، فالثأر مثلاً، عند عشائر البدو يشكل نظاماً اجتماعياً كاملاً، تدخل في تكوينه مجموعة متداخلة من السلوك الجمعي والعرف والقانون، متمثلة في تقاليد وإجراءات تفرض نفسها على الأفراد في مجتمع العشيرة، وهو

بالإضافة إلى ذلك يخدم وظيفة هامة من وظائف الدفاع الاجتماعي التي تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار بين أفراد العشيرة الواحدة من جهة وأفراد العشائر الأخرى من جهة ثانية.

مثال آخر نظام التعليم... ومن الواضح أن لكل نظام أهداف ثابتة ومحددة، وأنماط أو نماذج معينة للسلوك تتعلق بالنظام، ويتخذ منها الفرد مواقف خاصة.

و – مجال الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد:

تعتبر الظاهرة الاجتماعية سلوكاً عاماً مجاله بيئة الجماعة، مستنبطاً من معاييرها، وناتجاً من تفاعل أفرادها في علاقاتهم الاجتماعية، وله على أفرادها سلطة، ويستجلبهم بجاذبيته، وهو ذو أحكام نسبية تبعاً لسنن التطور ويتحدد مدى اتساعه حسب قبول أفراد الجماعة وممارستهم الفعلية له. **الظواهر الاجتماعية بطبيعتها** مركبة متشابكة ومتداخلة، كل ظاهرة تؤثر وتتأثر بالظواهر الأخرى، وهذا الأثر المتبادل بين الظواهر **حتمي، ونسبي، فهو حتمي في وجوده، ونسبي في درجته وتحوله وشموله.**

ـ إن الاختلاف في طبيعة المجتمعات البشرية يحتم على الباحث أن يدرس كل ظاهرة اجتماعية ضمن إطارها العام، فارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال في الوطن العربي، مثلاً، لا يعود إلى انخفاض مستوى المعيشة بين أفراد هذه المنطقة فحسب، بل يتأثر بمستوى تعليمهم العام، وبالعادات والتقاليد المتبعة في مجال المحافظة على الصحة العامة.

ز – مجال المجتمع المحلي:

تستخدم دراسة الحالة في المجتمعات المحلية باعتبارها طريقة منظمة تجمع البيانات عن هذه المجتمعات لتكوين صورة واضحة عن الحياة داخلها.

وقد يتجه البحث هنا لدراسة نسق معين أو نظام واحد من المجتمع المدروس، أو يشتمل على مجموعة أنظمة وذلك عند ابتغاء الدقة والتفصيل ويعتبر نموذج دراسة قرية " حوارين" في القطر العربي السوري مثالاً لدراسة الحالة في المجتمعات المحلية.

تناولت الدراسة النواحي المختلفة، من سكانية واقتصادية، واجتماعية، وترويحية، وثقافية ...الخ استخدمت طريقة دراسة الحالة إلى جانب طريقة المسح الاجتماعي العام لسكان القرية.

مثال آخر: دراسة د. (حامد عمار) لقرية سلوى المصرية حيث بين تاريخ حياة المخبرين الذين مدوه بالمعلومات عن طريق وصف معيشتهم الخاصة، **ودرس الخطوط الرئيسة** التي يتبناها المجتمع الريفي في تلقين المعايير (التنشئة) والتي تشكل الطفل حتى تحوله إلى راشد.

ح – مجال المجتمع في نطاق المنظومة العامة:

يتعدى استخدام طريقة دراسة الحالة المجالات سالفة الذكر، إلى مجال المجتمع ضمن إطار المنظومة الاجتماعية العامة، وهنا يكون المجتمع نموذجاً يصور حقيقة المنظومة الاجتماعية في تغيراتها الداخلية والخارجية.

مثال: دراسة" للتغير والتحديث في الوطن العربي" إذ كانت الحالة هي المجتمع العربي السوري، لفهم وتحليل التغير الأساسي الذي يشكل عاملاً في انتقاله من دولة تقليدية إلى دولة عصرية.

تعرضت الدراسة لأهم التغيرات التي طرأت على أطر المجتمع العربي السوري منذ حصوله على الاستقلال وأشارت إلى أبرز التغيرات التي تتصل بالنظم الاقتصادية والتي انعكست على كثير من العلاقات الاجتماعية والنظم السياسية في المجتمع. وركزت الدراسة عل ثلاث نقاط هي:

1 – كانت التحولات التي طرأت على أطر المجتمع العربي السوري ثورية، سريعة، حادة، تشكل انقطاعاً كبيراً عن الماضي.

2 – إن تلك التغيرات لم تكن عبارة عن مجرد صراعات بين مجموعات سياسية بدوافع شخصية، بل كانت تعكس في نهاية التحليل تغيرات حضارية وصراعات عقائدية بين قوى اقتصادية واجتماعية وسياسية في واقع المجتمع.

3 – إن الذي يفسر تعدد نماذج النظم الاشتراكية في العالم هو اختلاف الظروف الموضوعية لكل منها، والنظريات الاشتراكية عند دخولها مجال الممارسة والتطبيق لا تقدم أساساً واحداً متجانساً في جميع المجتمعات بل تتنوع صورها وتتميز أوجهها.

خامساً – صفاتها وميزاتها:

تتضح ميزات طريقة دراسة الحالة من خلال موضوعاتها، ومجالاتها المتنوعة، ومدى استخدامها كطريقة منهجية تفيد من خلال عملية جمع البيانات والخطوات المنهجية الأخرى الأساسية في البحث الاجتماعي، بمعرفة الواقع الاجتماعي، والتأكد من صحة الافتراضات التي تبنى عليها دراسة الحالة.

وأهم ما تتسم به طريقة دراسة الحالة **المرونة** و**التعمق**، فالمرونة تمكن الباحث من أن يعدل وينقح ويطور من خطة بحثه وافتراضاته كل ذلك تبعاً للظروف التي تجابهه عند الدراسة وما يتكشف له أثناءها من أمور جديدة.

وبالإضافة إلى المرونة فإن دراسة الحالة تمتاز بالتعمق الذي يمكن الباحث من الوقوف على الخصائص المميزة لكل حالة فريدة وهذا ما يساعد في الوقوف على الدوافع الخفية والأساسية للمسألة موضوع الدراسة والتعمق في دراسة الحالة ناتج عن طبيعة الدراسة نفسها، هذه الدراسة التي تتضمن الدراسة الرأسية والأفقية لمختلف العوامل المتشابكة والتي يمكن أن يكون لها تأثير في الظاهرة موضوع الدراسة. وتكمن أهمية دراسة الحالة أيضاً من أنها تمكننا من دراسة موضوعات كثيرة لم تستطلع بعد بما فيه الكفاية، فتنير لنا طريق البحث، وتمكننا من تحديد مشكلة البحث بدقة، وتساعدنا في وضع الفروض.

وتكمن أهمية هذه الطريقة أيضاً في معرفة مختلف المواقف الاجتماعية وغيرها، دراسة مفصلة، ودقيقة (كدراسة تاريخ الحياة التطورية ومعرفة الحياة الخاصة للأفراد).

وتأسيساً على ذلك تمتاز طريقة دراسة الحالة بما يلي:

1 – تمكن الباحث من استغلال معارفه الشخصية وخبراته عند القيام باختيار مجتمع صغير يعرفه بدقة.

2 – الدقة في الدراسة والإلمام بجميع الجوانب المختلفة للظاهرة المدروسة.

3 – الاستعانة بالمعلومات والبيانات التي تتعلق بتاريخ الحالة، والتي تفيد في تفهمنا العميق للظاهرة المدروسة.

4 – الاستفادة من الملاحظة، والاختبارات، والوثائق الشخصية، والمذكرات، وتاريخ الحياة الشخصية، وجميع المصادر الأخرى.

5 – التركيز على الجوانب الرئيسية والمميزة أثناء دراسة الظاهرة.

ومن أهم مصادر جمع البيانات في إطار طريقة دراسة الحالة ما يلي:

أ – **الوثائق الشخصية:** تكتب دراسات الحالة أو تواريخها عادة بصفة الغائب. وتحضر عن طريق المقابلات الشخصية بالإضافة إلى السجلات الصحية وغيرها. وكثيراً ما تشتمل دراسة حالة مجتمع أولي، أو فئة اجتماعية على عدد كبير من دراسات حالات وحدات أصغر، فقد درس

(و. ل. ورنر) وزملاؤه، مثلاً، المجتمعات الأولية المختلفة في انكلترا على شكل حالات، ونظروا للمؤسسات عند دراستها على أنها حالة مستقلة ضمن هذه المجتمعات.

وغالباً ما تمثل الوثائق الشخصية وثيقة المتكلم.

تعتبر الوثائق الشخصية معلومات قيمة من أجل البحث العلمي لأسباب مختلفة، فالسيكولوجي " أولبرت" ينظر إليها على أنها تكشف قصداً أو عن غير قصد عن معلومات مباشرة عن حياة المؤلف العقلية وديناميكيتها وعملها، أما **عالم الاجتماع** فقد يضيف إلى ذلك: أن الوثائق تكشف عن العلاقات الاجتماعية التي يحتفظ بها ويكون لها معناها لديه أو تؤثر في سلوكه وموقفه وقيمه.

تعطي صورة عن استمرار الخبرة في حالات الحياة، مثال: دراسة حالة شخص ما بما فيها قصته قد تكشف عن صراع داخلي، أو عن أسلوب حياته... عن أسباب إخفاقه أو نجاحه.

مثال: دراسة" كليفورد شو" لمنحرفي الأحداث جمع فيها معلومات (وثيقة تاريخ الحالة) وتسمى الميكروسكوب الاجتماعي، وذلك إضافة إلى المعلومات الطبية والسيكولوجية والتحليل النفسي.

ب – المذكرات اليومية والرسائل: إن المذكرات اليومية والرسائل قد تكمل المعلومات التي يمكن الحصول عليها من مصادر أخرى، **فالمذكرات اليومية**، مثلاً، يمكن أن تلقي ضوءاً على صلات الشخص الاجتماعية الجديدة (وهي خبرات في نظره هامة) وتزودنا بالتعليقات التي لنا عن خبراته الشخصية. وهي عادة تزودنا بالأمور الحادثة كما حدثت ولا تعتمد على الذاكرة. وقد يكون من العسير جداً الحصول على مذكرات يومية كافية.بيد أنها إن وجدت فيجب استخدامها لتوسيع نطاق المعلومات الأخرى عن الحالة المدروسة والتأكد منها.

والرسائل أيضاً قد تزبد في المعلومات الحاصلة لدينا عن الحالة وهي قيمة لأنها كثيراً ما تحتوي على معلومات سرية وتكشف عن مواقف شخصية أو أنباء أو ردود فعل عاطفية أو مواطن اهتمام شخصية مما لا تحتويه غالباً الوثائق الأخرى أو المقابلات الشخصية، ولقد استخدم" توماس و زنانيتشي" الرسائل استخداماً واسعاً (حالي 15000 رسالة) فتمكنا من خلالها من فهم التماسك العائلي والشخصي وتفهم الخبرات الشخصية وردود الفعل العاطفية ومحاولات التلاؤم مع الوضعيات الجديدة للحياة.

ولقد سار (توماس وزنانيتشي) في دراستهما مفترضين أن من الضروري دراسة العوامل الموضوعية لكي نتفهم توجه الإنسان نحو عالمه.

لقد أكد (توماس وزنانيتشي) أن علينا أن نتذكر أن البيئة التي تؤثر على الفرد والتي يلائم نفسه معها إنما هي عالمه وليست العالم الموضوعي للعلم، إنها الطبيعة والمجتمع كما يراهما، لا كما يراهما العالم.

أما الدكتور" بلمر" فإنه يشك في دقة الوثائق الشخصية وفي إمكان اعتبارها حالات ممثلة وموثوقة، وأن وثيقة الحياة يجب أن تقدر قيمتها بالاستناد إلى ما يلي:

1 – دوافع المؤلف من وراء تحضير الوثيقة.

2 – فرص معرفته بالحقائق التي يسجلها.

3 – أمكانية تحيزه وتحامله.

4 – نفاذ بصيرته ومقدرته على توضيح حياته الباطنية وعالمه الثقافي.

سادساً – الخطوات المنهجية في إطار طريقة دراسة الحالة:

تبدأ دراسة الحالة عادة بزيارات للمصادر الأولى لجمع البيانات، للتعرف على أبعاد الظاهرة وصياغة الأسئلة المحددة.

تستخدم طريقة دراسة الحالة للبحث في الظواهر الفردية والجماعية، وتطبق فيها جميع الخطوات المنهجية المتبعة في تصميم البحوث الاجتماعية من اختيار المشكلة وتحديد أهدافها، ووضع الفروض العلمية، والتعاريف الإجرائية...الخ.

وتتميّز هذه الطريقة عند استخدامها في **الحالات الفردية** بتركيزها على تاريخ الحياة التطورية للحالة...

وقد وضع" جون دولارد" عدة معايير لتقييم تواريخ الحياة، اعتبرت الفرد نموذجاً في محيط ثقافي، وبينت الارتباط الوثيق بين العوامل العضوية والبيولوجية للحالة وبين الظروف الاجتماعية التي مرت بها الحالة...

أما **السير الخاصة واليوميات والمذكرات الشخصية** فهي تكشف عن الخبرات الباطنة للأشخاص، ومن الأمثلة على السير ما كتبه "ابن خلدون" من تاريخ حياته في كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) وكذلك ما كتبه د." طه حسين" عن نفسه في كتابه (الأيام) وما كتب "أحمد شرابي" في كتابه (يوميات مثقف عربي).

أما في حالة استخدام هذه الطريقة في **الظواهر الجماعية** يتم، مثلاً، دراسة مؤسستين في مناطق مختلفة دراسة تفصيلية ... لمعرفة دورهما في عملية التنمية...

سابعاً دراسة الحالة والفرضيات الكامنة وراءها:

لتكون دراسة الحالة ذات فائدة للأغراض العلمية يجب أن تكشف عن العمليات والعوامل المسببة ومعدل ونسبة التغير داخل النماذج الاجتماعية التي تعتبر ممثلة وأن تظهر أثر هذه التغيرات على السلوك البشري وتنظيم الشخصية.

تعتبر دراسة" نلز أندرسون" نموذجية لدراسة الحالة حيث استخدم مختلف المصادر للحصول على معلومات الحالة من قبائل (هوبيز) عن طريق مقابلاته لهم، وملاحظاتهم في الأدغال وعن طريق الأغاني والقصص الشعرية وغير ذلك من أشكال التعبير عن أنفسهم الباطنة، بالإضافة إلى مقالات عن تركيب منظمتهم، كما حصل أيضاً، على تقارير ومعلومات إحصائية عن الحالة من سجلات الوكالات الاجتماعية ومن صور مقتطفة من الجرائد والمجلات...

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يجب التمييز بين أغراض وتكنيك طريقة دراسة الحالة في البحث الاجتماعي وبين أغراض وتكنيك طريقة دراسة الحالة في مضمار الخدمة الاجتماعية المتعلقة بها، ففي الأولى من أجل المقارنة والتصنيف والتحليل بقصد التوصل إلى وضع مبادئ عامة، وفي الثانية من أجل التشخيص بقصد المعالجة.

كما يجب التمييز بين أغراض دراسة الحالة في البحث الاجتماعي وبين أغراض طريقة الحالة كما يمارسها المراقب الاجتماعي، مثال على عمل المراقب الاجتماعي: (استخدام معلومات الحالة من قبل لجنة البطالة في حكومة كاليفورنيا) هدف الدراسة هنا تحسين أحوال العاطلين عن العمل. وعلى الرغم من الاختلافات بين الأغراض والأساليب التكنيكية تعتبر هذه المعلومات غنية للبحث الاجتماعي.

ثامناً – تنسيق المعطيات الأولية لدراسة الحالة:

لتنظيم المعطيات الأولية للحالة وتنسيقها يجب اتباع الخطوات التالية:

أ – إعداد ورقة تبرز المعطيات الأولى بوساطة ما يلي:

1 – إشارة إلى مرحلة الدراسة التي تصفها الوثيقة.

2 – رقم الوثيقة.

3 – اسم المحقق.

4 – اسم الشخص الذي يدلي بالمعلومات وعلاقته بالوضعية المبينة.

5 – تاريخ المقابلة.

6 – الأحوال التي جرت بها المقابلة.

7 – الإشارة إلى طبيعة المعلومات السرية إذا رأى المخبر بأنها سرية.

ب – الإشارة إلى المشاكل التي استنتجت لتوضيح أغراض الدراسة والإشارة إلى قوائم الاستفهامات والخلاصات والفرضيات التي استنتجت.

ج – ذكر الطريقة والتكنيك المتبع (المقابلة، الملاحظات الشخصية، القوائم، مقتطفات من الوثائق...).

د – تقرير أو سجل للمعطيات الأولية

هـ – من الضروري تسجيل بعض الملاحظات التمهيدية أو نقد المعطيات الأولية وإرفاق ذلك مع الوثيقة عندما يكون المخبر ومعطياته لا يزالان ماثلين في ذهن الباحث.

يعتقد بعض الباحثين أن معطيات الحالة الأولية، وعلى الأخص تواريخ الحياة الشخصية، لا تستطيع أن تصور حياة الآخرين من نفس الفئة، في حين البعض الآخر يرى أنه توجد إمكانية لذلك وأنها تستطيع أن تظهر (دراسة الحالة) اهتمامات ودوافع الأشخاص وحياتهم).

ونتيجة للقبول الواسع لهذه الطريقة، بدأ استعمال وإدخال وسائل تكنيكية جديدة وأكثر موضوعية في جمع وتحليل معطيات الحالة وطريقة ودراسة الحالة.

تاسعاً – حدود طريقة دراسة الحالة:

يرى بعض الباحثين أن الاستنتاجات (رغم كثافة المعلومات) صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة، وكثيرا ما يسمع المرء الدفاع القائل: بأن التعميم قد يتم التوصل إليه بواسطة المعرفة الشخصية. أما السيكولوجي الاجتماعي يذكرنا دوماً بأن الوثائق تتعرض للأخطاء في الإدراك أو التذكر أو استخلاص الأحكام أو التمييز غير المقصود ممزوج بميل خاص نحو المبالغة في التأكيد على حوادث غير مألوفة.

أما " ريد بن" يعتقد أن القيمة العملية لسجلات الحياة مصغرة إلى حد كبير للأسباب التالية:

1 – قد يكتب الفرد أو يقص ما يريده المحقق أو ما يعتقد أن المحقق ينشده.

2 – من المحتمل أن يكون الفرد أكثر ميلاً إلى تبرير نفسه منه إلى تبيان الحقيقة.

3 – قد تظهره قصته لا كما هو عليه بل كما يأمل أن يكون وذلك من خلال عرضه لرغباته وآماله ومخاوفه.

4 – ‘ن المحقق ميال لرؤية ما يبحث عنه. ومدارس (ادلر) و(يونغ) و(فرويد) في التحليل النفسي أمثلة على ذلك فأحدهم ينظر إلى حالة لا يرى فيها نقصاً عضوياً بينما يرى الآخر نزعة انطوائية، أو انبساطية، ويرى الثالث رغبات مكبوتة.

5 – إن معظم الأفراد الذين يزودوننا بوثائق الحياة هم حالات مفصلة فهم إما شواذ أو أشخاص يتصفون بصفات اجتماعية شاذة. ومن ثم فالتعميمات قد تكون صالحة فقط لفئة صغيرة نسبياً.

6 – إن المحقق يرغب عادة في مساعدة الفرد.

7 – إن وضعيات الحالة نادراً ما تكون قابلة للمقارنة في عالم من المتبدلات ذوات السلوك المتشابه.

8 – ‘ن الفرد يقص قصته بكلماته هو، وعلى المحقق أن يجد المفاهيم المنطقية ووحدات التصنيف فيها، أو أن يستنتجها منها.

عاشراً – نقد وتقويم:

لخص أحد علماء الاجتماع مكانة طريقة دراسة الحالة في العلوم الاجتماعية بقوله: " إن كتابة تلخيص تاريخ الحالة يتعادل في الأهمية مع كتابة ملخص تجربة في المعمل، والتماثل بين الإثنين واضح في غاية العلوم، فإذا كان الفهم هو أحد أهداف العلوم، فإن ذلك محقق في العلوم الاجتماعية، من خلال طريقة دراسة الحالة. سواء أكان ذلك في مخبر المعمل أو واقع المجتمع".

مع أن في هذا القول شيئاً من الصحة إلا أنه توجد بعض الملاحظات منها:

1 – إن الطابع الوصفي والقصصي لدراسة الحالة، ينطلق من اختيار ذاتي للظروف المشكلة لظاهرة المدروسة.

2 – إن تفاعل الباحث مع مجموعة البحث قد يبتعد به عن الموضوعية، ويظهر ذلك انفعالاته وخصائصه المكتسبة من تعامله مع الجماعة.

3 – إن الطابع الذاتي لدراسة الحالة قد يدفع الباحث لحذف بعض الحقائق التي لا تتماشى مع افتراضاته الأولية.

4 – إن دراسة حالات فردية لاستقصاء عناصر ترمم ما قد لا يتوفر من بيانات حول الظاهرة، يجب ألا يفهم على أنه تعميم لنتائج الدراسة على حالات مماثلة.

مدرّس المقرّر: د. ماجد أبو حمدان